إدوارد سعيد

أثر في العالم... وفينا

من أجل حكاية فلسطينية عربية جديدة

□ سري مقدسي

أشهرُ ما يُعْرف عن إدوارد سعيد في العالم العربيّ عملُهُ الدؤوبُ لنصرة الشعب الفلسطينيّ. بل إنّ قلّة تستطيع أن تَزْعم أنّها عملتْ أكثر مما عمل هو للدفاع عن الفلسطينيين، لا في مواجهة الحقد الصهيونيّ وحده وإنّما أيضًا ـ وهو الأهمّ ـ في مواجهة بؤس القيادة الفلسطينية أو ذلك المزيج الرثّ من الحماقة، والجهل، والغرور، والفساد، والعجز، والسرية، والضعف، وانعدام النضج، والكسل، وانعدام الخيال انعدامًا شبهَ مطلق؛ مزيجٌ خلَّفَ الشعبَ الفلسطينيَّ عالقًا حيث هو اليوم. وللأسف فإنّ ما يُقال عن الفلسطينيين يُقال عن العرب عامةً: ذلك أنّه في زمنٍ تهيمن عليه القوةُ الأميركيةُ والإسرائيليةُ التي لا تكفّ عن التمدّد (وعن التنسيق)، تخلّى العربُ ـ المفتقرون على ما يبدو إلى أيّ رؤية ـ عن قوة المبادرة لصالح أعدائهم، ويجدون أنفسَهم ينتظرون بعصبية وقوعَ الضربة القادمة عليهم. إنّ سير الأحداث ووجهةَ التاريخ قد تُركا، هما أيضًا، لكي يُمْليهما الآخرون على العرب. ولكنّ إدوارد بالطبع لم يكن ليَقْبل الإملاءَ، فقضى معظمَ العقد الماضي لا «صادحًا بالحقيقة في وجه القوة» فحسب، وإنّما مؤكّدًا أيضًا أمام أخواته وإخوانِه الفلسطينيين والعرب أنّ بإمكانهم أنّ يفعلوا ما هو أفضل من مجرد لعب الدور الذي عيّنتْه لهم سرديةٌ إسرائيليةٌ وأميركيةٌ طافحةٌ بحسّ السيطرة: دورِ تدمير الذات الفلسطينية والعربية بل والتضحيةِ بها أيضًا.

غير أنّ ما ينبغي علينا أن ندركه، نحن العربَ، وبإلحاح، هو أنّ تصميم إدوارد البطوليّ على قول الحقيقة في وجه القوة لم يستمدّ عزيمتَه من استقامته الشخصية وحدها، وإنّما قبل كل شيء من اكتشافاته المذهلة في ميدانٍ لا يسترعي إلى القليلَ جدًا من اهتمام العالم العربيّ، ألا وهو ميدانُ الثقافة. ففي حين يبحث العرب عن مصادر لقوتهم في ميادين التكنولوجيا، أو المال، أو السلاح، أو السياسة بالمعنى الفجّ للكلمة، فإنّ الدرس الباقي الذي تركه لنا إدوارد سعيد هو أنّ القوة أولاً وأساسًا ظاهرةٌ ثقافية. فالقوة تجد جذورَها في الثقافة، وفي الثقافة تتمكّن القوةُ من أن تَحْلم أحلامَها وأن تعبِّرَ عن رؤاها. إنّ الثقافة ليست محضَ تزيينٍ لما هو ماثلٌ أصلاً، وإنّما هي التي تُسْبغ على القوةِ فكرَها ولغتَها. وبالنسبة إلى كلِّ مَنْ يَسْعى منّا إلى تحدّي القوة (السلطة) بدلاً من خدمتها، فإنّ ميدان الثقافة هو ما يجب أن نَسعى إليه لمقاومة السلطات وتحدّيها ونزع سلاحها وحلّ أفكارها ومفاهيمِها وتصانيفِها وتراكيبِها اللغوية المبنيةِ على العنف. ولعلّ البرهان الأفضل على ذلك هو شخصيةُ إدوارد سعيد نفسها؛ فلو لم يكن عالَمُ الثقافة والأفكار مهمًا إلى هذه الدرجة، لَما استطاع رجلٌ واحدٌ ـ رجلُ أدبٍ وموسيقى، رجلُ فلسفةٍ، لا جنديٌّ أو حاكمٌ أو حوتٌ من حيتان المال ـ أن يصنع كلَّ ذلك القدْرِ الكبيرِ من الأمور ليضع مسألةَ فلسطين على خارطة العالم بأسره.

ولكنّ علينا أن نضيف شيئًا فورًا، وهو أنّ «الثقافة» بهذا المعنى لا تُحيل على الشعر والفن وحدهما ـ أيْ على ثقافة النّخب أو «الثقافة الرفيعة» ـ بل على فهم أوسع للسرديات وللتمثيلاتِ، أو تحيل ببساطةٍ أكبر على **سرد الحكايات**، وهو ما يستطيع القيامَ به أيُّ إنسان حتى لو كان متواضعَ القدرات مسحوقًا. وحقيقة الأمر أنّ المفهومَيْن التوأميْن، الحكاية والتمثيل، هما المفتاحان لفهم كلِّ ما فعله إدوارد تقريبًا، من أولِ عملٍ كتبه عن التمثيلات representations في روايات جوزيف كونراد، إلى بحثه الشهير عن التمثيلات الغربية للشرق (**الاستشراق**)، فإلى مداخلاته الملتهبة دفاعًا عن حقّ الفلسطينيين في تمثيل أنفسهم. وينبع اهتمامُ إدوارد بالسرد والتمثيل من عمله وإسهاماته الهائلة في النظرية الأدبية، ومن انخراطه في نقاشِ أعمالِ مفكّرين متنوّعين من ميشيل فوكو إلى جاك ديريدا ورايموند ويليامز وانتونيو غرامشي، ناهيك عن جملةِ فلاسفةٍ يمتدّون من غيامباتيستا ڤيكو إلى كارل ماركس. إنّ مسألةَ مَنْ يمثِّل مَنْ، وفي أية ظروف، سترتبط دائمًا، في مجال النظرية الأدبية، بإدوارد سعيد. وإنّها لمسألةٌ، على بساطتها الظاهرة، من الأهمية بحيث لم تقتصر على تثوير حقل النقد الأدبيّ في ذاته فحسب بل طال التثوير حقولاً أخرى أيضًا: كالفلسفة، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، والدراسات السينمائية، والعلوم السياسية.

غير أنّ تلك المسألة لم تكن بالنسبة إلى إدوارد مسألةً نظريةً أبدًا ـ مع أنّ عمله في مجال النظرية مَنَحَه فرصةً لتطويرها إلى حيث بَلَغَ بها ما بَلَغ ـ وإنّما كانت أيضًا مسألة عملية ملحّة. لذا لن يكون من الإجحاف في شيء أن أقول إنّ إسهامات إدوارد قد تلخّص أفضلَ تلخيصٍ في واحدٍ من أبسط أشكال التعبير الثقافيّ، ألا وهو سَرْدُ الحكايات. فإذا رَجَعْتَ بنظرك الآن إلى عمل إدوارد على امتداد السنوات السابقة أمْكَنَك أن ترى أنّ هناك حقيقةً بسيطةً واضحةً لا يُمْكن التشكيكُ بها، تَهْدي كلَّ مداخلاته تقريبًا، وتَسْطع كالمنارة ـ وسط الظلام البائس الذي نجد

ما أثار حنقَ سعيد من كذبة أوسلو هو أنّ القيادة الفلسطينية وقّعتْ على سرديةٍ كَتَبها لها الإسرائيليون والأميركيون

أنفسَنا فيه ـ واضحةً كما كانت دومًا: وهي أنّ للشعب الفلسطينيّ حكايةً يرويها؛ ومثلما كانت هي حكايتَه دومًا منذ البداية، لا حكايةَ أيٍّ كان غيره، فإنّ عليه **هو** أن يقرِّر مستقبلَها وخاتمتَها. وفي ضوء ذلك يَغْدو كثيرٌ مما حدث منذ عام ١٩٤٨ واضحًا جدًا: وهو أنّ الفلسطينيين، من دون عوْنٍ كبيرٍ من قيادتهم، كانوا ومايزالون يدافعون عن حكايتهم بأرواحهم ودمائهم في مواجهة عدوٍّ بغيض لم يَقْتصر هدفُه على سلبِهم أرضَهم وسلبهم قدرتَهم على تقرير مصيرهم بأنفسهم، وإنّما تعدّى ذلك إلى حرمانهم من تاريخهم وحقيقتهم وماضيهم ـ ومن ثم حاضرهم ومستقبلهم. وهذا يفسِّر التدميرَ الإسرائيليَّ والمحوَ الإسرائيليَّ الوحشيَيْن لكلّ آثار الحكاية الفلسطينية ـ من تزوير فجٍّ لأحداثِ نكبةِ ١٩٤٨، إلى قتلِ آلاف الفلسطينيين، ومن بينهم مثقفون كغسان كنفاني وكمال ناصر وعشراتٍ آخرين، إلى نهب السجلات والأرشيفات الفلسطينية من بيروت عام ١٩٨٢ ومن رام اللّه عام ٢٠٠١. حتى الإسرائيليون أنفسُهم ـ أسيادُ العنف والوحشية والتدمير في العالم ـ يقرّون بأنّ القوة لا يُمْكن فصلُها عن الحكاية والتمثيل، أيْ عن الثقافة.

ما أثارَ حنقَ سعيد من كِذبة «عملية السلام» في أوسلو لم يَنْحصر في أنّ القيادة الفلسطينية تصرّفتْ بحماقة، خاذلةً بذلك الشعبَ الفلسطينيَّ وضاربةً عرضَ الحائط بالتضحيات الكبيرة التي قدّمتها الانتفاضةُ الأولى، وإنّما تعدّى ذلك إلى توقيعها على حكايةٍ (سردية) كَتَبَها لها الإسرائيليون والأميركيون، بدلاً من أن تلتزم حكايتَها هي. فلقد وصل الفريق الفلسطينيّ إلى أوسلو، على نحوِ ما أشار إدوارد في عدة مناسبات، من دون خرائط، ولا معطيات، ولا محامين، ومن دون أيّ شخص يُتقن اللغةَ الإنكليزية أو لغةَ القانون الدوليّ. بكلمة، وصل الفلسطينيون إلى أوسلو من دون حكايةٍ يحكونها. وعلى الطرف المقابل حضر الإسرائيليون إلى أوسلو بصحبة جيشٍ من المحامين والمفاوضين، مسلَّحين بالخرائط والأوراق والإحصائيات والوثائق، ومسلَّحين بما هو أهمّ من ذلك كلّه: حكايةٍ تتضمّن سبعَ عشرةَ مسوّدةً جاهزةً سيوقّعها الفلسطينيون في النهاية. هذا هو تراثُ عملية أوسلو، الذي يتواصل إلى يومنا، بما في ذلك «اتفاقياتُ جنيف» المُخزية هذا العامَ، حيث تخلّى المفاوضون الفلسطينيون ليوسي بيلين (الذي لا يَحْظى وإنْ بمنصب في الحكومة الإسرائيلية ناهيك عن عدم تخويله التفاوضَ على صفقة سلام) عن حقّ العودة، مقابلَ وعودٍ جديدةٍ غامضةٍ ومؤجّلةٍ إلى ما لا نهاية يُطْعمها الإسرائيليون للفلسطينيين (وللعالَم) منذ عام ١٩٩٣. في هذا الصدد تشير الباحثةُ الإسرائيليةُ تانيا رينهارت إلى أنّه على الرغم من احتجاج المفاوضين الفلسطينيين بعد الجولة الأُولى من «العروض» الإسرائيلية في طابا عام ١٩٩٣، عادوا فوقّعوا على الخطة الإسرائيلية على مضض. «إنّ ذلك الاستسلامَ الفلسطينيَّ الكاسحَ الأول،» تقول رينهارت، «أشَّرَ على بدايةِ سلسلةٍ طويلةٍ من المفاوضات التي أَمْلَتْ فيها إسرائيلُ مطالبَها في حين احتجّ عرفات وبكى.. ثم وقّع.»

لقد زَعَمَ أحدُ المفاوضين الإسرائيليين، وهو يوسي بيلين نفسُه، أنّه يستطيع «أن يقول بثقة إنّ بإمكاننا أن نصل إلى اتفاقٍ دائم لا يَخْضع للشروط الصريحة التي قدّمها الفلسطينيون وإنّما لتنازل كبير [من جانبهم]... لقد لاحظتُ فجوةً كبيرةً في جانبهم، بين شعاراتهم وفهمهم الفعليّ للواقع ـ وهي فجوةٌ أكبرُ بكثيرٍ من التي في جانبنا نحن. إنّهم مستعدّون لقبول اتفاقٍ يتخلّى عن جزء كبير من الأرض، من دون تفكيك المستوطنات، ولا عودةٍ إلى حدود ٦٧، وبترتيباتٍ في مسألة القدس أدنى من مستوى البلديات.» المحزن أنّ بيلين لا يبالغ البتة: فمعظم المفاوضات التي جَرَتْ منذ اتفاق أوسلو الأصليّ استَنَدَ إلى ما يسمّى بـ «اتفاق بيلين ـ أبو مازن» عام ١٩٩٥، الذي يَعِدُ الفلسطينيين بـ «السيادة» على الضفة وغزة وبالسيطرة أيضًا على جزء من «القدس.» وهذا قد يبدو مقبولاً ـ وإنْ كان يتوقّف على كيفية فهمنا لكلمتَي «السيادة» و«القدس.» غير أنّ المشكلة هي أنّ الإسرائيليين أذكى كثيرًا بالكلام من القيادة الفلسطينية. فنحن اليوم نَعْلم حين نقرأ عبارة «السيطرة الفلسطينية على القدس الشرقية» أنّ ذلك يعني في الحقيقة سيطرةً فلسطينيةً على قرية أبو ديس الصغيرة التي سيَعْمد الإسرائيليون ـ بسخاءٍ منقطع النظير ـ إلى سَلْخها عن بلدية القدس، بحيث يستطيع فلسطينيّ جالسٌ في ساحة أبو ديس أن يدّعي (لمن يا ترى؟) أنّه جالسٌ في القدس الشرقية العربية؛ أو بحيث يستطيع الفلسطينيون أن يدّعوا، بتشييدهم مجلسًا نيابيًا في أبو ديس، أنّ عاصمتهم هي في القدس الشرقية. «بالتأكيد،» قال عرفات حين سُئل عمّا إذا كان الفلسطينيون سيَقْبلون ذلك، «من الممكن قبولُ فكرةِ أبو ديس، التي كانت جزءًا من القدس أيضًا تحت الحُكْم الأردنيّ.»

كما أنّ «السيادة» الفلسطينية تعني، في اتفاق بيلين ـ أبو مازن، سيطرةً نظريةً وصُوَريةً على مساحةٍ تتضمّن وجودًا يهوديًا استيطانيًا هائلاً ومسلَّحًا، وتتضمّن الاحتفاظ بسيطرة الجيش الإسرائيليّ على مساحات شاسعة من الأراضي وعلى كلّ نقاط الدخول والخروج من/وإلى الأرض «ذاتِ السيادة،» التي تبلغ في حالة الضفة الغربية نصفَ الأراضي المخصّصة للفلسطينيين تقريبًا. إنّ «السيادة،» مثلَها مثلَ «القدس،» ليست إلاّ كلمةً في الهواء. وأحدُ المبادئ الأولية في النظرية الأدبية المعاصرة، وهو مبدأٌ قَدَّمَ فيه إدوارد إسهاماتٍ ضخمةً، هو أنّ الكلمات لا تعني الكثيرَ ـ بل هي لا تعني شيئًا في الحقيقة ـ خارج السياق، خارج الحكاية (السردية)، خارج مجموعةٍ من الأحكام والقواعد الخاصةِ بالتأويل. وفي حالتنا هذه من الواضح أنّ الإسرائيليين يسيطرون على السياق والحكاية والقواعد، ويسيطرون ـ من ثمّ ـ على معاني الكلمات ويقرّرونها. وقد يبدو ما قلناه للتوّ درسًا بائسًا في أولويّات النقد، لكنّ المهمّ هو أنّه يتضمّن مجموعة من التبعات الحقيقية جدًا، والفعلية جدًا، بمقدور طالبٍ في السنة الجامعية الأولى أو أعلى من ذلك بقليل أن يفهمها، ولكنّها خَفِيت ـ كما يبدو ـ عن القيادة الفلسطينية. ذلك أنّ ما وافقَ عليه الفلسطينيون عام ١٩٩٣ وعام ١٩٩٥ (ولمجرّا) إنّما هو أرضٌ ذاتُ «سيادة» كما قيل ولكنّها غيرُ متّصلة بعضها ببعض ولا متكاملة، وليست لديهم سيطرةٌ على المياه ولا على المصادر الطبيعية، ولا على الحدود أو المجال الجويّ، ووسط عشرات آلاف الغرباء المعادين والمسلَّحين ـ بل وجيشٍ غريبٍ معادٍ أيضًا ـ موزَّعين في كلّ أرجاء المكان. إنّها فعلاً «أرضٌ ذاتُ سيادة» ! والمذهل أنّ القيادة الفلسطينية مازالت، حتى اليوم، تَقْبل مثلَ هذه الأمور أساسًا للتفاوض.

والوعد النهائيّ الذي قدّمتْه «خارطةُ الطريق» البوشية الشهيرة هو أنّ الفلسطينيين سيُمنحون ـ بمجرد تصرُّفهم تمامًا كما يريدهم الإسرائيليون أن يتصرّفوا ـ دولةً مستقلّةً ذاتَ صفاتِ سيادة an independent state with attributes of sovereignty. ما هو، بحقّ الشيطان، معنى «دولة مستقلّة ذات صفات سيادة؟» كيف تكون دولةٌ «مستقلةً» ولكنّها لا تَمْلك إلاّ «صفات» السيادة؟ وكيف تَمْلك «صفات» السيادة فقط وتكون مستقلةً في الوقت نفسه؟ المفترض أنّ معنى ذلك كلّه هو أنّ الفلسطينيين سيستطيعون أن «يتمتّعوا» بكلّ «الاستقلال» الذي قُدِّم إليهم في أوسلو، بالإضافة إلى عَلَم ونشيدٍ وطنيّ، و«صفاتٍ» أخرى من صفات السيادة مختارةٍ بعناية، ويتمّ استعراضُها جميعُها في شوارع العاصمة أبو ديس... عفوًا، أَقْصد «القدس.»

من الواضح جدًا أنّ هناك طريقتيْن فقط لتفسير قبول القادة الفلسطينيين بهذه الكذبة. فلو سلَّمْنا بالتزامهم الحقيقيّ بالقضية الوطنية فسنَسْتنتج إما أنّهم بلهاء بالكامل، أو أنّهم ـ ببساطة ـ لا يأخذون اللغةَ والحكايةَ والتمثيلاتِ على مَحْمل الجدّ كما يَفْعل الإسرائيليون. ليس ثمة تفسيرٌ آخر لعدم شجب القيادة الفلسطينية لمسخرة «عملية السلام،» باستثناء رغبتها في توريط نفسها في تفاصيلَ عبثيةٍ لا نهايةَ لها لمفاوضاتٍ يَعْلم حتى أصغرُ طفلٍ في غزة أنّها لن تؤدّي إلى حرية حقيقية. أيُّ سلام هو هذا؟ إنّ «عملية السلام» لا تقدِّم سلامًا ولا عمليةً؛ غير أنّ الفلسطينيين والعرب ـ بمشاركتهم في الحكاية كما حدَّدها الإسرائيليون والأميركيون، ومن غير أن يتحدَّوْها ـ يُسبغون عليها الشرعيةَ التي تحتاجها. وهكذا يبدو الإسرائيليون وكأنّهم هم الذين يقدّمون «العروضَ» ـ كما هو حال «التضحيات» الشهمة التي يُزعم أنّ باراك قدَّمها (ولكنّه لم يفعل ذلك حقًا) في كامب دايڤيد عام ٢٠٠٠ ـ في حين يجد الفلسطينيون أنفسَهم في موقف الدفاع وقد أُسند إليهم دورُ «الرفضاويين» في النصّ الأميركيّ ـ الإسرائيليّ لأنّهم في الأساس لم يَطّلعوا بنصٍّ من إنتاجهم هم.

لكنّ أكثر ما يبعث على الأسى ـ وتلك هي النقطةُ المركزيةُ التي ردَّدها إدوارد طوال الأعوام الأخيرة الماضية ـ هو أنّ الفلسطينيين، بعكس الإسرائيليين، لا يحتاجون إلى التلاعب بالكلمات لكي يعبِّروا عن حكايتهم. ففي حين يحتاج الإسرائيليون إلى دَفْع لغتهم وحكايتهم إلى غاياتها القصوى من أجل تصوير أنفسهم أولاً ضحايا الهجوم الفلسطينيّ «غيرِ المبرَّر» وبوصفهم حاملي عروض السلام السخيّة ثانيًا، لا يحتاج الفلسطينيون إلى أن يكونوا «خلاّقين» (إذا جاز التعبير) في استخدام اللغة إلى تلك الدرجة. فلديهم حكايةٌ بسيطة، صحيحةٌ، أصيلةٌ، حقيقيةٌ، فعليةٌ، ليرووها: حكايةُ حرمانٍ، وعذابٍ، ونضالٍ لتحقيق قضية نبيلة: وكلُّ ما عليهم أن يفعلوه هو أن يلتزموا حكايتَهم وأن يَرْفضوا ـ بعملهم هذا ـ «خبيصةَ» الأكاذيب والتشويهات والإجهاضات اللغوية والمنطقية التي يبثّها العدوُّ. وبالمقارنة مع الالتواءات والخزعبلات المستحيلة التي يحتاج

تراث أوسلو يتواصل في اتفاقيات جنيف المخزية حيث تخلّى الفلسطينيون ليوسي بيلين عن حقّ العودة

الإسرائيليون إلى تقديمها في ساحة الحرب على السرديات والتمثيلات، فإنّ المهمة التي يواجهها الفلسطينيون هي: البساطةُ عينُها!

ولكنْ هل ساحةُ الحرب العالمية على السرديات والتمثيلات، بل وعلى الثقافة نفسها، هامةٌ اليوم؟ نعم، هي كذلك على صُعُدٍ متعدِّدة. **أولاً**، لأنّ الأفكارَ والمفاهيمَ الخاصة بالذات تتشكّل في تلك الساحة تحديدًا. وفي السياق العولميّ الذي نَسْكنه حاليًا، غَدَتْ هذه الساحةُ أرضيةً مشتركةً للجميع، وإنْ لم يشاركوا فيها كلُّهم على قَدَم المساواة. إنّ الإسرائيليين والأميركيين لا يقومون بأعمالهم من دون تفكير، ولا يَنْطلقون في تفكيرهم من الفراغ أو من الفضاء الخارجيّ؛ وإنّما يشكّلون تفكيرَهم انطلاقًا من الأفكار والكلمات والتراكيب اللغوية والمفردات التي توفّرتْ لديهم داخل مجالٍ عالميٍّ عامّ. ليست هناك قوةٌ تستطيع أن تمارس سيطرتَها المطْلقةَ على عالم الثقافة والحكاية (السرد) ـ وإنْ كان أحدُ طرفيْ صراعٍ ما قادرًا على فَرْض سيطرةٍ أكبرَ بكثير على المجال العامّ إذا تخلّى الطرفُ الآخرُ عن قدرته على فعل ذلك وسلَّمَ المبادرةَ إلى الطرف الأول. إذن، إذا استطعنا إقحامَ أفكارنا وحُجَجِنا وسردياتِنا على هذه الأرضية العالمية للتمثيلات والسرديات، استطعنا فعلاً أن نؤثّر في طريقة تفكير الآخرين. ومن البدهيّ أنّ على أفكارنا وسردياتنا وكلماتِنا وتراكيبِنا اللغوية ومفاهيمِنا أن تتصارع مع أفكارهم وسردياتهم وكلماتهم... ولكنّنا سنستطيع في هذا الصراع، على الأقلّ، كما بيَّن إدوارد مرارًا وتكرارًا في غيرِ موضع، أن نَكْسبه بسهولة، إنْ قرَّرنا ذلك.

ثانيًا، إنّ الساحة العالمية للسرديات والتمثيلات هي المكانُ الذي يَلْتمس فيه أطرافُ أيّ صراع العونَ من العالم. فلنواجهِ الحقائقَ: ما كان للعدوانية الإسرائيلية أن تستمرّ طويلاً بدون الدعم الأميركيّ ؛ وما كان للدعم الأميركيّ أن يأتي لو أُجبرت الحكومةُ الأميركيةُ أو مكوّناتُها (أعضاء الكونغرس، السلطة التنفيذية) على دفع ثمنٍ سياسيٍّ لقاءَ ذلك الدعم. فمثلاً لو أُعْلم الناخبون الأميركيون بحقيقةِ ما يجري في فلسطين، بدلاً من أن يُتركوا فريسةً للاختلاقات الخطابية الإسرائيلية واختلاقات مبرِّريها في الإعلام العالميّ، لأَمْكَنَ إقناعُهم بالتصويت لمرشّحين يَعْملون على تغيير الوضع القائم. وإحدى وسائل انتزاع هذا الثمن هي محاولةُ إعادة توجيه الرأي العامّ في الولايات المتحدة بعيدًا عن تقديم الدعم لإسرائيل (علمًا أنّه دعمٌ يتمّ على مضضٍ كبيرٍ في أحسن الأحوال). كلُّنا سَمِعَ بمؤامرات عبيثة وعنصرية لا تنتهي عن سيطرة «اليهود» على الإعلام الأميركيّ؛ لكنّ الحقيقة البسيطة هي أنّه ليست هناك حاجةٌ فعليةٌ إلى مثل هذه المؤامرات «اليهودية» أصلاً ما دام العربُ لا يمارسون حضورًا إعلاميًا مُقْنعًا في الولايات المتحدة. صحيح أنّ في الإعلام العالميّ بعضَ الناطقين العرب اللافتين والمميَّزين والبُلغاء، ولكنْ لماذا ليس هناك حضورٌ أكبر من هذا؟ السبب الأساسيّ هو أنّ الناطقين العرب يَفْتقرون إلى وضوح الفكر ووضوح اللغة، ويَفْتقرون إلى مَلَكة البلاغة، وربّما الأهمّ من ذلك كلّه أنّهم يَفْتقرون إلى امتلاك ناصية اللغة الإنكليزية التي هي ـ لحسن الحظ أو لسوئه ـ لغةُ المجال العالميّ العامّ. وفي المقابل لا يواجه الإسرائيليون أيًا من مَواطنِ الضعف هذه. إنّ ما يَجْعل ناتانياهو أو دوري غولد خَطِريْن إلى هذا الحدّ ليس عبقريتَهما أو بلاغتَهما أو وضوحَ ذهنهما، وإنّما قدرتهما على أن يخاطبا جمهورًا أميركيًا بوصفهما جزءًا منه. فإذا وُضع أشخاصٌ مثلُهما في مواجهة ناطقٍ عربيّ يَمْلك معرفةً متلعثمةً بالإنكليزية، ومعرفةً ضئيلةً بالحقائق، ولا يَمْلك سرديةً يستميل بها الناس، ولا ثقةً في صوابية موقفه، فإنّ أولئك الأشخاص سيَرْبحون دائمًا. ولكنْ حين وُضع أمثالُ ناتانياهو وغولد في مواجهة إدوارد سعيد كانوا دائمًا يَخْسرون.

مغزى كلّ ما قلنا ليس أنّنا نَحْتاج إلى «إدواردات» جُدُد، وإنّما أنّ علينا ببساطة أن نتعلّم الدروس التي تركها لنا: علينا أنْ نطوِّر معرفةً أكبرَ بإسرائيل والولايات المتحدة من تلك التي نَمْلكها اليوم ولا تتضمّن عن هذيْن البلديْن إلاّ أقلّ القليل؛ وعلينا أن نحسِّنَ امتلاكَنا الجمعيَّ للغة الإنكليزية، لغةِ الكون اليوم، دون أن يُشْعِرَنا ذلك بخيانةِ لغتنا العربية؛ وعلينا قبلَ كلّ شيء أن نأخذ السردَ والتمثيلَ والثقافة نفسَها على مَحْمل جدٍّ أكبر. علينا أن نَقِيء حكاياتِ الطرف الآخر وسطورَه وخطابَه، فنشكّلَ رؤيتَنا نحن، حكايتَنا نحن، مفهومَنا نحن لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

لوس آنجلس

سري مقدسي

أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة كاليفورنيا، لوس آنجلس.